أثر الحواس في بناء الصورة الفنية لدى المعري

أ .بريك خيرة
جامعة سيدي بلعباس

من المعروف بداهة أن بيئة الشاعر العربي القديم تفرض حضورها المؤثر في شعره ، و لذلك كان من الطبيعي أن تلقي هذه البيئة بظلالها على الصورة الفنية لديه ،وهكذا جاءت الصورة الفنية في شعرنا العربي مستمدة من طبيعة الحواس ، خاصة المرئي منها والمسموع ، فكانت ضرباً من المحاكاة لعالم الواقع يقربها من فنون الرسم و التصوير والتمثيل ، و لقد جعلت الحسية الصورة الفنية قريبة المأخذ ، سهلة الإدراك ، جزئية العلاقة فيما يربط بين طرفي الصورة التقليدية ، المشبه و المشبه به ، أو المستعار منه ، أو الفكرة و ما يكنى عنها ، على أن هذه الجزئية أخذت تتبدد تدريجياً بزيادة الاهتمام بالتشبيه التمثيلي و الاستعارة التمثيلية – بلغة البلاغيين القدامى – الأمر الذي سار بالصورة الفنية أشواطاً متقدمة على طريق مفهوم الصورة التقريرية التي عمادها المشاكلة و المشابهة بين طرفيها.

وكثيرا ما تتحول –بفعل تقنيات معينة يوظفها الشاعر باقتدار – إلى صورة إيحائية تحمل إلى إشاعة جو نفسي خاص ، و بهذا لم تعد الحسية وصمة تلاحق الصورة الفنية القديمة وتدمغها بالخلو من الإيحاء ، و إنما صارت قطعة ديكور تبدو قيمتها وجماليتها في الإطار العام للعمل الفني ، وكم كان الدكتور مصطفى ناصف مصيبا حين أكد أن التصوير في الأدب نتيجة تعاون الحواس و كل الملكات و أن الشاعر المصور حين يربط بين الأشياء يثير العواطف الأخلاقية و المعاني الفكرية ،و عليه فإن الصورة الحسية و إن كانت غايتها

الأولى تصوير المرئيات و المسموعات ،فهي في كثير من الأحيـــان تـــؤدي وظيفتها كاملة بسبب اتساقها مع نظيرتها و اشـــتراكها معهـــا في توصـــيل الأحاسيس نفسها ، حتى تبدو للمتلقي كأنها خلية ضمن نسيج حي .

وقد كان أبو العلاء المعري من الشعراء الذين حظوا باهتمام النقد العربي القديم و الحديث، كونه أحد الشعراء الذين مزجوا حياتهم بفنهم ، فشـــعره يكاد يكون ترجمة باطنية لنفسه وطبعا لآفته البصرية دور كـــبير في ذلـــك ، فعبرت صوره عما يدور في ذاته و حياته . فإذاكانت الصورة الشعرية نتاج الحواس، فهل هناك تمييز بين حاسة و أخرى في بناء الصورة بمعنى أن الصور التي تستمد من العين أجمل من التي تستمد من الأذن ؟ أو التي تأتينا عن طريق الذوق أجمل من التي تأتي من الشم ؟و إذا كان البصر ضرورياً ، فما الـــذي ولد هذه القدرة العجيبة لدى أبي العلاء المعري على بناء صوره الفنية ؟فمـــن ذلك نتساءل أي الحواس اعتمدها الشاعر في بناء صوره الفنية ؟،والتي جعلته أهم شاعر عرفه الشعر العربي على امتداد تاريخه الطويل "[1] والعريض .

لعلنا نلمس الإجابة في قوله أثناء مرضه في مرحلة الصبا: لا أعرف مـــن الألوان إلا الأحمر ، فأنني ألبست في مرض الجدري ثوباً مصبوغاً بالعصفر فأنا لا أعقل غير ذلك "[2] وعليه يذهب بعض " علماء النفس المحدثون أن هنـــاك أنماطاً متعددة من الصور في الشعر ، فهناك النمط البصـــري ، والســـمعي ، والذوقي ، و الشمي و اللمسي ، و العضوي ، و الحركي ، بل أن كل واحد من هذه الأنماط ينقسم إلى أنواع أخرى متعددة ، فالنمط البصري يمكـــن أن ينقسم تبعاً لدرجاته اللونية أو درجات الوضوح ، و النمط اللمسي يمكن أن ينقسم تبعاً لدرجات الحرارة و البرودة ، أو الخشونة و الملامسة ، أو اللين و الصلابة"[3]

وقد يعتبر المتلقي أن العين هي الأداة المثلى للإحساس بمواطن الجمال ، و أن فقدان البصر يحدث أثرا في مزاج الإنسان وتفكيره وإحساسه ، فلـــيس للمكفوف من وسائل للإحساس بالجمال سوى الحواس الأخرى المتمثلـــة في السمع واللمس والشم و الذوق ، و من ثم يشك النقاد في أن أبا العلاء عرف قيمة النظر في إفادة الصور و المعاني و فهمها و معرفتها ، لأن معرفة ذلك لا يكون إلا بالتجربة و المعاناة و قد فقد أبو العلاء نظره و هو ابن الرابعة مـــن عمره في سن لا يعرف فيها شيء و قد سمى نفسه رهين المحبسين أي بين البيت و العمى ، و مع هذا فالصور البصرية معدومة وجدانيا لدى المكفوف ، وذلك من خلال الحياة الإجتماعية التي يعيشها ، فتنتقل إليه من خلال الألفاظ التي نعبر عنها إلى الشخص المكفوف ، و لعل الدراســـات الحديثـــة أثبتـــت أن المكفوفين قد يستطيعون التعبير تشكيليا عن أحاسيسهم غير البصرية علـــى الرغم من أنها لم تكتسب أي صور بصرية قبلية.

و لا ريب أن للبصر أهمية كبرى في الإحساس بالجمال ، فعن طريق العين تختزن الذاكرة آلاف الصور التي تردها نتيجة الرؤية و كثيراً من الأشياء التي تميز بالعين لا تميز ببقية الحواس كالألوان مثلا ، وعلى الر غم من ذلك " بإمكان المكفوف يأتي بأجمل الصور ، بل لعل بإمكان الشاعر الذي ولد أعمى أن يرسم لشعره صوراً ملونة إلى أ بعد حد مـــع أنـــه لا يعتمـــد إلا علـــى إحساسات اللمس و الشم و السمع ، وعلى الإحساس بالحياة على العواطف و الأفكار "[4]، وقد يسلم الضرير من نظرة الناس إليه في كثير من الأحيـــان المليئة بالسخرية و التهكم و اهتمامه بالزندقة ، و كانت سورة "عبس " لهـــا منزلة عظيمة في منهجه[5] الفني والوجداني .

أثر تعطل حاسة البصر عند أبي العلاء :

لاريب أن فقد حاسة البصر ولد تبرماً في نفسية الشاعر ،فسخر من كل شيء في هذا الوجود

أو كان كل بني حواء يشبهني فبئس ما ولدت في الدّهر حواء
بعدي عن الأنس برء من سقامهم و قربهم للحجى و الدين أدواء [6]

نلقاه ساخطاً على الجنس بشري الذي أنجبته النساء إذا كان من أتين بهم يشبهونه في عماه ،كما عرف برهين المحبسين لعماه ولزومه بيته الذي لا يفارقه فقال عن نفسه :

أراني في الثالثة من سجوني فلا تسال عن الخبـــر النبيث
لفقدي ناظري و لزوم بيتي و كون النفس في الجسد الخبيث [7]

نلمس يأسه من نفسه ومن الحياة لملازمته بيته ، وقد خلق هذا القصر الاجتماعي من المعري شاعراً نابغا وعد حكيم المعرة ، ويكفيه سمو مكانتـــه فخراً ، فقد رثاه ثمانون شاعراً ، منهم الأمير الحسن بن عبد الله بن حصينة الذي يقول في مطلع قصيدته .

العلم بعد أبي العلاء مضيع و الأرض خالية الجوانب بلقع [8]

يستمر الشاعر في تبرير عماه و التزامه بيته ، بقوله:

إذا كفّ صل أفعوان ، فماله سوى بيته ، يقتات ما عمر التّرابا[9]

نجده يشبه نفسه بذكر الحية الذي لا تنفع معه الحيلة ، فهو قوي شرس فإذا غدا كفيفاً أعمى التزم بيته،ثم يحاول أن يقنع نفسه بأن في الجنة يعـــود مبصرا لقوله:

و تزول العيون عني ، إذا حم م بعين الحياة ثم انغمسي [10]

لا يخفى على المتلقي ما في شعر أبي العلاء من حسرة ومعاناة كامنـــة في نفسه ،وقد نجد هذه المعاناة ماثلة عند طه حسين " أنه ما من شك في أنه أحس منذ أول عهده بهذه المحنة الطبيعية فرقاً عظيماً ما بينه و بين أترابه ، و ما مـــن شك في أن إحساسه هذا الفرق قد آلمه و أذاه و أصبغ على نفسه كثير مـــن التحرج و التحفظ و الانتباه في سيرته العلمية " . [11]

إن فقد حاسة البصر قد يرزق صاحبه بقدرة خارقة على التخيل الواسع تمكنه من اشتقاق صور شعرية لافتة للمتلقي يعبر بها عن خواطره الدفينة يقول طه حسين: " لم يكن يقرأ إلا إذا وجد قارئاً ... و لم يكن يكتب أيضاً لـــنفس هذا السبب و ما أرى أنه عرف الكتابة و القراءة التي يعرفها أمثاله المكفوفين ، و إن أشار لهذا النحو من القراءة في قوله:

كأن منجم الأقوام أعمى لديه الصحف يقرأها بلمس [12]

كان يعتز بنفسه بأن له" ذكاء حاد لا يكاد يخطأ شيئاً ، و ذاكرة قوية لا تسمع شيئاً حتى تحفظه ثم لا تكاد تنسى منه شيئاً ، و عقلية قادرة على التعمق في كل شيء [13] ،وقد تحلى بهذه الملكة كثير من الأدباء والشـــعراء قـــديماً وحديثاً.

و مما نلاحظه في شعره نزعة الشك ، وهي من أكثر الظواهر النفسية بروزاً في شعره فقد فقد أبو العلاء بصره صبياً واستقبل الحياة غير مستمتع بهذه الملكة التي ترسم في نفس الأحياء في الحياة صور لا عهد له بها ، فخلف ذلك في نفسه حزناً وألماً فحمل شعره بمختلف ضروبه هذه الصور الأليمة .

قد ترد هذه الظاهرة إلى أن عزلة الشاعر الناجم عن فقـــد البصـــر الذي فرض على الشاعر أسلوباً خاصاً في الحياة يخضع لمجموعة من الأفكـــار الفلسفية آمن بها و مضى يدعو إليها ، و عاش منقطعاً لعلمه و شعره و تأملاته في الحياة و تفكيره في مصير الإنسان وفلسفته في ثنائية الوجود الحياة والموت.

أثر الصورة البصرية في شعر أبي العلاء :

كان الشاعر يعي ويتمثل ما يقول لاستيعابه تراث أمته لقوة ذاكرته فكان لبيئته الأثر الحسن وفي محيطه الشعري الأثر الفاعل في صقل موهبتـــه الشعرية وفي صوغ صوره الفنية .

نجد في إحدى قصائده الفخرية أنغام صاخبة بكل ما فيها من غرور وتعال و مبالغة في الإحساس بالذات " [14] على نحو ما نرى في هذ البيت:

وكم عين تؤمل أن تراني فتحقد عن رؤيتها السوادا [15]

يعمد شاعرنا إلى نهج المتنبي في الفخر بنفسه رغم "أن هذا لا يتفق مـــع شخصية أبي العلاء الهادئة الرزينة ، لم يكن إلا محاولات يجرب فيها قول الشعر مقلدا بها المتنبي كان شديد الإعجاب به، ومن هنا تبدو شخصية المتنبي أكثر ظهورا في هذا الفخر من شخصية أبي العلاء " [16]

يمكن القول أن ظروف أبي العلاء البصرية لم تمكنه مـــن الوصـــف الصادق إلا أنه كان معتمداً على ما استقر في ذاكرته من التراث القديم الذي كان له صلة وثيقة به و إطلاع واسع عليه، وعند قراءتنا لهذه الأبيات الـــتي يصف فيها الليل و النجوم نلمس فيها قدراً من الروعة و الإبداع ،يقول:

رب ليل كأنه الصبح في الحس ن وإن كان أسود الطيلسان

فقد ركضنا فيه إلى اللهو لما وقف النجم وقفة الحيران
كم أردنا ذاك الزمان بمدح فشغلنا بذم هذا الزمان
كأني ما قلت و البدر طفل و شباب الظلماء في عنفوان [17]

ففيه يسلك نهج القدماء في وصف الليل و الكواكب و النجـــوم ، مظهراً موقع كل نجم كأنه رآه بالعين المجردة، و عندما ما يتحدث عن الليل و النجوم في وصف لوحته فإنه يصورها تصويرا خيالياَ يغـــوص في الألفـــاظ الغريبة فيقول :

يسرع اللمح في احمرار كما تس رع في اللمح مقلة الغضبان
ضرجته دما سيوف الأعادي فبكت رحمة له الشعريان [18]:

إذن كان هناك تيار عام يعمل في صور أبي العلاء البصرية فيترك أثره فيها ، و هذا التيار كان يعمل في شعر جميع الشعراء و لم يقتصـــر علـــى أبي العلاء، فالبادية و الرحلة و الجمل و حيوان الصحراء و الرمال و سرى الليل ، كانت عامة مشتركة لدى جميع الشعراء، و كأنها لازمة لا غنى عنها لكـــل شاعر ، يعمل منها الشعراء كل بمقدار .

استغل أبو العلاء مرجعيته الثقافية في بناء صوره البصرية في لزومياته ، مكنته من أن يستقل بمذهب فني متميز يختلف عن مذهب أبي تمام و مذهب المتنبي ، وإن يكن قد ظل حريصا على أن يحفظ على مذهبه طابعه المستقل و شخصيته المتميزة عن نظرائه من رواد عصره.

أثر الصور السمعية في شعر أبي العلاء :

أولى شاعرنا حاسة السمع اهتماماً كبيراً لفهم حقائق الوجود،" لأن الجهاز العضوي بأكمله و ليس فقط جهاز الأبصار هو الذي يتفاعل في كـــل

فعل من أفعال " [19] الإنسان، فما يمتع العين يمكن أن يمتع الأذن " فالألم الذي يعبر عنه بالصوت يؤثر فينا على وجه العموم تأثيراً روحياً أبلغ من تـــأثير الألم الذي يعبر عنه بقسمات الوجه وحتى بالحركات ، و الشعر نفسه لـــيس في حقيقة أمره إلا جملة من الكلمات المختارة يقصد بها الشاعر أن يهـــز آذان المتلقي هزا مثيراً ومؤثراً .

ولا يخفى على أحد أن الضرير يعتمد على حاسة السمع في معرفة الناس باعتبارها أكثر الحواس إدراكاً للأشياء إذا فقد البصر، فبعض الأشياء يحكـــم على جمالها أو قبحها بالسماع فقيل له : بم بلغت هذه الرتبة في العلم ؟. فقال : ما سمعت شيئاً إلا حفظته " [20]. فحلت الأذن محل العين وهو مـــا يعـــرف بتراسل الحواس ، فاعتمد أبو العلاء على الصوت اعتماداً كليـــاً في بنـــاء الصورة الفنية التي حملت الصبغة الحزينة والمتشائمة المألوفة في شعره ، حيث يصوغ انفعالاته في صورة سمعية واضحة فجعلها حية في حدتها الانفعالية حيث يقول ::

يا أذن ، سوف يظل السمع معتقدا و تستريحين من قال و من قيل [21]

ظهرت الصورة قوية في تعبيرها الانفعـــالي ، فالشـــاعر يســـتخدم الأصوات بدلالتها الحسية و أمثلة هذه الصور كثيرة على الرغم من اعتراض بعض المحدثين له أمثال شوقي ضيف أن يكون في تصويره أي أثـــر لجـــدة أو إبداع [22]، وذهب آخرون إلى أن طبيعته تفرض عليه أن تكون الأذن موضع الرؤية ، وقد يعد ذلك إجحافاً في قدرته الفنية عندما يرد جماليـــة صـــوره الشعرية إلى آفة فقدان البصر .

أثر الصور الحسية الأخرى (السمعية اللمسية و الذوقية) في شعر أبي العلاء :

إذا كان السمع و البصر حاستين مهمتين في التعبير على مواطن الجمال و كوامن النفس ، فمن الممكن أن يكون ذلك بحواس أخرى كالشم و اللمس و الذوق ، وهذه الحواس أسعفت الشاعر في الفهم و الاستيعاب و التصوير الفني الذي قد لا يحظى به الأسوياء ، فكثيراً من الأشياء يحكم على جمالها أو قبحها عن طريق الحواس المذكورة " فما تعجب به العينان هو ما تعجب به في الغالب حواسنا الأخرى المتصلة بالوظائف الحيوية اتصالا مباشراً ، فكما أن اللمس علم العين كيف تقدر المسافات في المكان فقد علمها كذلك مستعينا بالذوق و الشم و سائر الحواس الحيوية ما ينبغي أن نعجب به ، ونحبه و نسعى إليه " [23]

فتحدث عن الرخاوة و النعومة و البرودة و الحرارة و النار في تصوير ما يلمس ، و تحدث في الريحان و المسك و العنبر والزهر لدى تصوير ما يشم ، و لجأ إلى مختلف ألوان الطعوم ليصور ما يتذوق ، و كانت لها أثرا كبيرا في شعره في كل مرحلة من حياته ، فحاسة الشم من " الحواس التي تمكن الإنسان من أن يستبدل بالأشياء ما يشير إليها من إمارات و علامات " [24]فهي تتيح لنا أن نشعر بإحساسات فنية لا تستطيع العين وحدها أن تطلعنا عليها فاستخدم أبو العلاء هذه الحاسة في صوره وقد تأثر إلى حد بعيد بالمشمومات ووظفها في كل مذهب ، فهو يقول :

تقلد أعناق الحواطب في الدّجى
فريدا فما في عنق ما هنة لطّ

ويرفع إعصار من الطيب لا يرى

عليه انتصار كلما سحب المرط

و أجل طيبهم دم من ظبية

و قذى من الحيتان و هو عنبر [25]

ونلفيه يوظف حاسة اللمس في بناء صوره ،فنابت عن بقية الحواس ، يقول :

نواعم ، يلقين الثقيل من البرى

و يجعلن في الأعناق ، مستثقل الإثم [26]

أدخل صورة النعومة في إطار الإحساس بالملامسة، ويبدو أن الوضع اختلف في استخدام الصور اللمسية في مرحلة عزلته، حيث تتجلى صور الحكم والأمثال والنصح والإرشاد ماثلة في قوله فيقول "

احذر سليلك ، فالنار التي أخرجت

من زندها إن أصابت عوده حترقا [27]ا

فهو يحذر الأب من ابنه فقد يجلب له مصيبة كالنار التي تخرج من الزند إن سقطت على عودها أحرقته، هنا تتصل صورة النار بصورة الحريق للدلالة على الحس اللمسي وفي موضع آخر يقول:

سلطانك النار أن يعدل فنافـ

عة و إن يجر فلها ضير و إحراق[28]

ونجده يستخدم صورة لمسية أخرى معتبراً السلطان مثل النار، فإن كان عادلا فخير ونفع وإلا ففي ظلمه كل الضرر والهلاك كالنار التي تحرق كل ما تصيبه.

ومن الصور الذوقية التي وظفها مرحلة عزلته والتي لم يقصد بها الذوق بالمفهوم الكيميائي، بل عدها بالمعنى الفلسفي الأخلاقي والميتافيزيقي وتمثل في قوله:

إياك والخمر، فهي خالبة غالبة، خاب ذلك الغلب
خابية الرّاح ناقة حفَلت ليس لها غير باطل حلب [29]

يبدو أن الشاعر كان يرغب من هذه الصور الذوقية التحذير من شرب الخمر لشدة ضررها على الناس، فالوعاء الذي تحفظ فيه الخمور مثل الناقة التي امتلأ ضرعها ولكنها لا تحلب إلا الباطل والمنكر، ويتجه بحاسة الذوق اتجاهاً جديداً في التصوير الفني، فإذا كانت الطعوم لها مذاقها وطعمها، فالموت أيضا له مذاقه الخاص. يقول في ذلك:

نفر من شرب كأس و هي تتبعنا كأننا لمناياها أحباء[30]

نلاحظ أن المعري في هذا البيت يتذوق شرب الموت مجازاً عن طريق الكأس، أما الموت فلا يمكن شربه وإنما هو إحساس روحي، وأحياناً أخرى تبدو الصور الفنية عند شاعرنا مبهمة غير واضحة المعنى لفكره الفلسفي الغامض، فهو ذو شخصية متميزة نهج نهجاً مستقلا مميزاً في التصوير الفني.

ختاماً لا أحسبني وفيت الموضوع حقه في هذه القراءة المتواضعة، فلم يكن ذلك مقصدنا ولا مبتغانا فإن وفقنا فمن الله، وإن أخفقنا، فذاك تقصير من النفس التي لا يمكنها بلوغ مبتغاها، والله المستعان.

الإحالات :

[1] يوسف خليف ، في الشعر العباسي ، نحو منهج جديد ، دار الغريب للطباعة و النشر و التوزيع القاهرة ،دت ص 161

[2] نفسه : ص 162

جابر عصفور : الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ، عند العرب ، المركز الثقافي ،

[3] بيروت ،لبنان ط1،1992،ص310

جان مري جويتو: مسائل فلسفة الفن المعاصر ، تر، سامي الدروبي ، دمشق ط2 ، 1965

[4] ص 88

ينظر إلى عبد الله العلايلي ، المعري ذلك المجهول رحلة في فكره و علمه النفسي ،دار الأهلية

[5] للنشر و التوزيع ، بيروت 1986 ، ص112

[6] فهرسة حسن محمد ، دار الكتاب العربي ،، بيروت ط2 1418، 1998 ص 49

[7] اللزوميات ، ج1 ،ص226

[8] نفس المصدر ، ص9

[9] نفس المصدر ،ص103

[10] نفس المصدر ص 227

[11] طه حسين: مع أبي العلاء في سجنه ، دار المعارف ،مصر ، ط11 ، 56

[12] نفس المرجع ، ص103

[13] يوسف خليف : في الشعر العباسي ، ص 165 [13]

[14] ديوان " سقط الزند " ، ص 198–199

[15] يوسف خليف : في الشعر العباسي ، ص 83

[16] نفس المرجع والصفحة

[17] نفس المصدر، ص 95

[18] يوسف خليف: في الشعر العباسي ، ص 175

[19] جان ماري جويتو : مسائل فلسفة ، ص 79–80

[20] أبو العلاء المعري: ديوان " سقط الزند "،ص 124.

[21] ينظر شوقي ضيف ، الفن و مذاهبه في الشعر العربي ، ص 397

[22] جان ماري جويتو : مسائل فلسفة الفن المعاصر ، تر سامي الدروبي ، ص 41–42

صبحي كبابة: الصورة الفنية في شعر الطائبين بين الانفعال و الحس ، دراسة منشورات اتحاد

[23]كتاب العرب 1999 ص 129 ص 64

[24] ديوان " سقط الزند " ، ص178

[25] ديوان اللزوميات ، ج1 ، ص 418

[26] ديوان اللزوميات ، ج2 ص 99

[27] نفسه ،ص 87

[28]ديوان " سقط الزند " ، ، ص 271

[29] نفس المصدر ، ، ص 49

نفس المصدر ،ص

09[30]